أساليب الحداثيين للطعن في السنَّة النبوية

Methods of Modernists to challenge the Sunnah of the Prophet

إسماعيل بن رابح كوشي

Ismail Ben Rabah Kouchi

دكتوراه في الفقه والأصول

Ph.D in Jurisprudence and its Assets

جامعة غرداية - الجزائر

University of Ghardaia - Algeria

ismail.kouchi@univ-ghardaia.dz

الملخص

إن من أفضل القربات إلى الله تعالى خدمة حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فهو المصدر الثاني من مصادر التشريع، والوحي المنطوق على لسان أفضل المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

لذلك عنيت الأمة الإسلامية بهذا الميراث العظيم، وبذلت من الوقت والجهد في حفظه والمحافظة عليه ما لم تبذله أمة لنبي من الأنبياء، وظهرت نتيجة لذلك العلومُ المختلفة التي كان من شأنها خدمة الحديث النبوي وحمايته من عبث العابثين.

ورغم ذلك؛ لم تمنع هذه العلوم بعض المشاغبين في كلِّ عصرٍ من التطاول على السُّنة وأهلها، بدايةً بأهل الأهواء والزيغ من أصحاب الفِرق والمذاهب الضالة التي نشأت في مرحلة مُبكِّرة من عمر الإسلام الحنيف، ومن أبرز العابثين بميراث النبي صلى الله عليه وسلم ما يسمى بـ (الحداثيين العرب) فقد نالت السنة النبوية القسط الأوفر من الهجوم والحرب المعلنة على أيديهم، وتعدَّدت أوجه الهجوم وأساليب الطعن فيها؛ فجاء هذا البحث ليبين أبرز تلك الأساليب المتبعة للطعن في السنة النبوية على صاحبها أفضل صلاة وأزكى تسليم.

الكلمات المفتاحية: (السنة النبوية – الطعن – أساليب – الحداثيين)

Abstract:

One of the best approaches to Allah Almighty is serving the hadith of the Prophet, may Allah bless him and grant him peace, as it is the second source of legislation and revelation spoken on the lips of the best messengers, upon whom be the best prayers and the most complete greetings. Therefore, the Islamic nation was concerned with this great inheritance, and spent time and effort in preserving it as no other nation would devote to any of the prophets. As a result, various sciences emerged that would serve the Prophet's hadith and protect it from nonsence of the nonsensical.

However; These sciences did not prevent some troublemakers in every era from attacking the Sunnah and its people, starting with the people of whims and deviance from the misguided sects and sects that a rose at an early stage in the life of true Islam. Among the most prominent tampers with the legacy of the Prophet, may Allah bless him and grant him peace, are called (Arab modernists). The Sunnah of the Prophet received the greatest portion of the attack and war declared at their hands, and the aspects of the attack and the methods of challenging it were numerous. This research came to show the most prominent methods used to challenge the Sunnah of the Prophet, the best prayer and the purest greeting.

Key words: The Sunnah of the Prophet - Appeal - Methods - Modernists

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الوحي حبلاً متيناً، وجعله للناس نوراً مبيناً، وأرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا وبعد :

لقد تعرضت مصادر الدين الإسلامي منذ زمن مبكر لدراسات متباينة، ولكل دراسة من هاته الدراسات مواقف مختلفة علمية وفكرية، سياسية واجتماعية، لكن الموقف الاستشراقي يعتبر الموقف الأبرز نظرا لكونه موقفاً مغرضاً، أسهم في بلورة أفكار وآراء تطعن في حجية مصادر الفكر الإسلامي، وبما أن السنة النبوية تعتبر المصدر الثاني من بين هاته المصادر بعد القرآن الكريم، فقد كان لها قدر كبير من دراسات المستشرقين التي تطعن في حجيتها وفي اعتبارها مصدراً من مصادر الاستدلال في الدين الاسلامي .

ومع مشارف بداية القرن التاسع عشر وفدت هذه الأفكار والآراء المناهضة لحجية السنة النبوية إلى ساحة الفكر العربي في ثوب جديد، أخذه دعاة الفكر الحداثي من كتابات المستشرقين والمناهج النقدية الحديثة للفلاسفة الغربيين، ومنذ ذلك الحين باتت تلك الأفكار والآراء تساق في قوالب جديدة تحمل اسم التحديث والتجديد والنهوض بالفكر الديني، ضمن منظومة فكرية متكاملة النسق تعرف بالفكر الحداثي العربي، و لقد تعدَّدت أوجه الهجوم وأساليب الحداثيين للطعن فيها؛

إشكالية البحث:

ومنه **فقد تمحورت إشكالية البحث كالآتي**: ما مدى حجية السنة النبوية عند دعاة الفكر الحداثي ؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية الأساسية مجموعة تساؤلات يمكن صياغتها كالآتي:

- ما مدى أخذ والتزام دعاة الفكر الحداثي بمفهوم الوحي قرآنا وسنة ؟
- ما مكانة ومنزلة السنة النبوية في التشريع الإسلامي عند الحداثيين ؟
- ما هي الطريقة والكيفية التي سلكها الحداثيون من أجل الطعن في السنة النبوية؟

أهمية البحث وأهدافه:

ويهدف هذا البحث – كغيره من بحوث علمائنا وأساتذتنا ومنهم نستفيد – إلى بيان

حجية السنة، والمساهمة في الذود عنها، وصد الهجمة المنظمة عليها، والتعريف ببعض أوهام الحداثيين وافتراءاتهم واستجلاء مواقفهم منها.

منهج البحث: تسير هذه الدراسة على وفق المنهج التحليلي التاريخي، بالوقوف على مفهومي السنة والحداثة، والمنهج الوصفي النقدي، بوصف أبرز شبهات الحداثيين ، ثم الرد على هذه الشبهات وفق المنهج العلمي.

خطة البحث: بناء على ما سبق جاء هذا البحث ليبين أبرز تلك الأساليب المتبعة للطعن في السنة النبوية وفق الخطة الآتية:

مقدمة: أهمية الموضوع، الهدف من دراسة الموضوع ...

تمهيد: حول مفهوم السنة وحجيتها

المبحث الأول: الحداثة (المفهوم، الأسس والمعتقدات(

المبحث الثاني: أبرز أساليب الحداثيين للطعن في السنة النبوية.

الخاتمة: فيها أبرز النتائج والتوصيات.

تمهيد
حول مفهوم السنة وحجيتها

أولا: مفهوم السنة

• **السُّنَّةِ لُغَةً**: : فَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ،[1] قَالَ الْخَطَّابِيُّ:[2] أَصْلُهَا الطَّرِيقَةُ الْمَحْمُودَةُ، فَإِذَا أُطْلِقَتِ انْصَرَفْتَ إِلَيْهَا، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِهَا مُقَيَّدَةً كَقَوْلِهِ : "مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيئَة " وَقِيلَ: هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمُعْتَادَةُ، سَوَاءٌ كَانَتْ حَسَنَةً أَوْ سَيئَةً، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيئَةً كَانَ عَ لَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَ نْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يوْمِ الْقِيَامَة[3].

• **السنة اصطلاحا**: فهي: قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره، وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره في عرف أهل اللغة والحديث، وأما في عرف أهل الفقه فإنما يطلقونها على ما ليس بواجب، وتطلق على ما يقابل البدعة كقولهم: فلان من أهل السنة.[4]

وتعريف السُنَّة عند أهل الحديث يختلف عن تعريف السُّنَّة عند الأصوليين والفقهاء، إذ السُّنة عند علماء الحديث أوسع من السُّنة عند الفقهاء والأصوليين، فالحديث في اصطلاح المحدِثين هو ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صِفة خَلقية أو خُلقية؛ وأما عند الفقهاء والأصوليين ما نقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من ق ول أو فعل أو تقرير مما يصلُح أن يكون دليلاً لحكم شرعي.

ثانيا: حجية السنة النبوية

السنة مصدر مهم في التشريع الإسلامي، وحجة في الفكر الإنساني، ولولاها ما اتضحت معالم الإسلام، ولا ظهرت معاني القرآن، ولا استنبطت أحكامه، ولم يقدم ا ي ' كتاب أو حديث من الخير والهدى والصلاح للناس مثل ما قدم القرآن والسنة، وكيف لا وهما وحي من الله تعالى.

---

(١) الصحاح، الجوهري: (٢١٣٩/٥).

(٢) إرشاد الفحول،الشوكاني: (٩٥/١).

(٣) أخرجه مسلم: صحيح مسلم، رقم: ١٢١٥.

(٤) إرشاد الفحول، (٩٥/١).

قال تعالى (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) [النجم/٣-٤]

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ وَمِثلَهُ مَعَهُ ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعَان عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيكُم بِهَذَا القُرآنِ ، فَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِن حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ).[1]

وروى الامام الأوزاعي عن حسان بن عطية أنه قال : (كان جبريل ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن).[2]

ولا يختلف المسلمون في حجية السنة وأهميتها؛ قال الامام الشوكاني: (إن ثبوت حجية السنة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في الإسلام).[3]

فكل سنة مجمع على صدورها من النبي صلى الله عليه وسلم فهي حجة شرعية لا يجوز ردها، وإن إنكار حجيتها موجب للردة، كما قرر ذلك علماء الإسلام.

(١) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، رقم: ٢٦٦٤، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٨٧٠)

(٢) أخرجه الدارمي: سنن الدارمي، رقم (٦٠٨).

(٣) الشوكاني: المرجع السابق، (٩٧/١).

المبحث الأول
الحداثة (المفهوم، الأسس والمعتقدات)

باتت (الحداثة) من أهم المصطلحات الفلسفية والفكرية المعاصرة إثارة للنقاش والأخذ والرد والجدل، ولذلك سنسعى من خلال هذا المبحث إلى محاولة إيضاحها عن طريق تناول مفهومها الاصطلاحي الغربي والعربي، ثم التطرق إلى سياقها التاريخي عبر ذكر أهم محطاتها وأسسها الفكرية، وذلك في شكل موجز مبسط.

المطلب الأول: مفهوم الحداثة ونشأتها

الفرع الأول: مفهوم الحداثة

أولا: كلمة الحداثة ومحتواها اللغوي

الحداثة في اللغة: من الحديث والحدِيثُ : نقيض القديم والحدُوثُ نقيض القُدمَةِ ، حَدَثَ الشيء يَحدُثُ حُدُوثاً، وَأَحدَثَهُ هو فهو مُحدَث، وَالحُدُوثُ : كون الشيء لم يكن، والحَدِيثُ: أناس حديثة أسنانهم وحداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر.[1]

ثانياً: تعريف الحداثة عند أهلها الأصليين (الغربيين)

عند تعريف الحداثة اصطلاحا نجد أننا أمام كم هائل من التعريفات المتفقة والمتباينة، غير أن أصحابها متفقون على أن أخص مفاهيم الحداثة في كونها تعني: الثورة على كل قديم وثابت والنفور من كل سائد، من أمور العقيدة والفكر والقيم واللغة والشؤون السياسية والأدبية والفنية، فهي إذن ثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط، وهذا ما ت دل عليه الحداثة في جميع مراحلها.[2]

فنجد مثلا جود دون يقول: إن ما ينبغي أن يكون حديثاً لا ينبغي أن يساير أي نزعة ايديولوجية أو كهنوتية، يعتقنها أي مجتمع آخر في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.[3]

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: (١٣٢/٢)

(٢) الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية،محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي: (ص١٢٨).

(٣) المرجع نفسه، (ص ١٣٢)

ويصف لنا (جوس أورتيكا كاسيت) الحداثة قائلا: "إن الحداثة هدم تقدمي لكل القيم الإنسانية التي كانت سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي، وأنها لا تعيد صياغة الشكل فقط بل تأخذ الفن إلى ظلمات الفوضى واليأس).[١]

ولذا يقول المفكر الإسلامي محمد عمارة: (لقد اطلعت على نص لكاتب فرنسي في كتاب له عن (الحرية والعلمنة ومبدأ الحداثة) فيتكلم فيه بوضوح عن الحداثة فيعتبرها ثمرة التنوير الغربي، فهي في جوهرها قطيعة مع الموروث المعرفي فلم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله وأنه منذ الآن فصاعداً راح الأمل في الله ينزاح كي يخلي المكان ، لتقدم عصر العقل وهيمنته، وهكذا ولى نظام النعمة الإلهية وأخذ ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة ، بالطبع يمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحداً ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني لقد أصبح الانسان نفسه مقياساً للإنسان).[٢]

ثالثا: الحداثة العربية

الحداثة في التداول العربي مصطلح يتسم بالغموض الدلالي، والتناقض و(اللاوحدة) و(النسبية) [٣] ,ويتميز: بعدم الانضباط وعدم الوضوح وعدم الاستقرار على حال ثابت.[٤]

ولعل أبرز تعاريفها وأدقه قول من قال انها: (منهج فكري أدبي علماني مبني على عدة عقائد غربية ومذاهب فلسفية، يقوم على الثورة على الموروث ونقده وتفسيره بحسب وجهة نظر القارئ). [٥]

فالحداثة حركة فكرية تقوم على رفض التراث وإحداث قطيعة معرفية مع الماضي وتجاوز التقاليد المألوفة، وإعادة صياغة العلوم والمناهج والقيم وفق مصادر معرفية غربية حديثة، لأجل الخروج برؤية جديدة عن حقيقة الإنسان والكون والطبيعة والحياة، وتختلف عن الرؤية السابقة. وقد قامت الحداثة برفض وتغيير كل ما هو قائم وكل ما هو موجود ولم تخص حقلا معرفيا أو مجالا علميا بعينه، بل هي حركة شاملة، امتدت إلى كل مجالات الحياة

(١) تقويم نظرية الحداثة، عدنان علي رضا النحوي: (ص٣٥).
(٢) ضبط مصطلح الحداثة، محمد عمارة: (ص ٢٣-٢٤).
(٣) كتاب المنزلات، طرد الكبيسي،(ص١١).
(٤) إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، عبد الغني بارة، (ص١٥).
(٥) المنطلقات الفكرية والعقدية لدى الحداثيين للطعن في مصادر الدين،أنس سليمان المصري: (ص٨١).

كالدين والفكر، والاجتماع.[1]

الفرع الثاني: تاريخ الحداثة ونشأتها

أولا: نشأة الحداثة

إن الحداثة في أصلها ونشأتها مذهب فكري غربي، ولد ونشأ في الغرب، ثم انتقل منه إلى بلاد المسلمين، فلقد نمت الحداثة في البيئة الغربية، وكانت إحدى مراحل تطور الفكر الغربي، ثم نقلت إلى بلاد العرب صورة طبق الأصل لما حصل في الغرب، ولم يبق منها عربي إلا الحروف العربية، أما الكلمات والتراكيب والنحو فقد فجرها الحداثيون كما يدعون وفرغوها من مضمونها.

نشأت الحداثة بعد أن تخلى الفكر الفلسفي عن الإرث الإقطاعي وموروثاته وأفكاره الغيبية الرجعية، من خلال ثلاث إشراقات رئيسة – كما يقول د. هاشم صلاح - :

الإشراقة الأولى: حصلت في القرن السادس عشر، أو ما يطلق عليه عصر النهضة والإصلاح الديني، عصر لوثر.

و الثانية: حصلت في القرن السابع عشر: وهو عصر الثورة العلمية الأولى، أي عصر غاليليو، وديكارت وكيبلر وكذلك عصر سبينوزا ولايبنتز، وكل أولئك الذين مهدوا الطريق للتنوير الكبير والثورة الفرنسية، باختصار إنها ثلاثة قرون حاسمة في تاريخ الغرب والعالم كله.

الإشراقة الثالثة: فقد حصلت في القرن الثامن عشر، عصر التنوير.

ولهذا السبب أجمع المفكرون الأوروبيون على تقسيم تاريخهم إلى ثلاث حقبات.[2]

ثانيا: تاريخ ظهورها

أما عن تاريخ ظهورها فإنه يصعب تحديد ذلك، للصلة القوية بينها وكل حركة مناوئة لشريعة الله تعالى، فالأسماء متعددة والدوافع واحدة، والأهداف منصبة في خانة واحدة, والأمور بمقاصدها. لذا يعتبر ما يقال من أن الحداثة ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي أو قبل ذلك أو بعده بقليل إنما هو باعتبار ظهورها في ثوبها الجديد. وعلى هذا

(١) القراءة الحداثية للسنة النبوية، حنان خياطي: (ص١٢).

(٢) نشأة الحداثة وتطورها التاريخي،غازي الصوراني: (

المعنى يحمل ما ورد في الموسوعة الميسرة من أن الحداثة بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريبا في باريس على يد كثير من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين، ولقي استجابة لدى الأدباء الماديين والعلمانيين والملحدين في الشرق والغرب. حتى وصل إلى شرقنا الإسلامي والعربي.[1]

المطلب الثاني: أسس الحداثة ومعتقدات أصحابها، وأبرز الشخصيات [2]

الفرع الأول: أسس الحداثة ومعتقدات أصحابها

وسأذكرها على شكل نقاط اختصارا للوقت:

- رفض مصادر الدين، الكتاب والسنة والإجماع، وما صدر عنها من عقيدة إما صراحة أو ضمناً.

- رفض الشريعة وأحكامها كموجه للحياة البشرية.

- الدعوة إلى نقد النصوص الشرعية، والمناداة بتأويل جديد لها يتناسب والأفكار الحداثية.

- الدعوة إلى إنشاء فلسفات حديثة على أنقاض الدين.

- الثورة على الأنظمة السياسية الحاكمة لأنها في منظورها رجعية متخلفة أي غير حداثية، وربما استثنوا الحكم البعثي.

- تبني أفكار ماركس المادية الملحدة، ونظريات فرويد في النفس الإنسانية وأوهامه، ونظريات دارون في أصل الأنواع وأفكار نيتشة، وهلوسته، والتي سموها فلسفة في الإنسان الأعلى (السوبر مان).

- تحطيم الأطر التقليدية والشخصية الفردية، وتبني رغبات الإنسان الفوضوية والغريزية.

- الثورة على جميع القيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية الإنسانية، وحتى الاقتصادية والسياسية.

- رفض كل ما يمت إلى المنطق والعقل، إلى غير ذلك من المعتقدات الفاسدة والباطلة.

---

(١) موس ى عمر كيتا و تكر الحاج موسى: الحداثة وأثرها في تعطيل مقاصد السنة النبوية، (ص٦).

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (٨٦٨/٢).

فالحداثة هي خلاصة سموم الفكر البشري كله، من الفكر الماركسي إلى العلمانية الرافضة للدين، إلى الشعوبية، إلى هدم عمود الشعر، إلى شجب تاريخ أهل السنة كاملاً، إلى إحياء الوثنيات والأساطير.

الفرع الثاني: أبرز الشخصيات

من أبرز رموز مذهب الحداثة من الغربيين:

- الفرنسي شارل بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧م
- الأديب الفرنسي غوستاف فلوبير ١٨٢١ - ١٨٨٠م.
- الأديب الروسي مايكوفسكي، وغيرهم من المجرمين.

ومن رموز مذهب الحداثة في البلاد العربية:

- أدونيس (علي أحمد سعيد) نصيري سوري، ويعد المُروِّج الأول لمذهب الحداثة في البلاد العربية.
- د. عبد العزيز المقالح - وهو كاتب وشاعر يماني، وهو الآن مدير لجامعة صنعاء وذو فكر يساري.
- عبد الله العروي - ماركسي مغربي
- محمد عابد الجابري مغربي.
- الشاعر العراقي الماركسي عبد الوهاب البياتي.
- الشاعر الفلسطيني محمود درويش - عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي أثناء إقامته بفلسطين المحتلة، وهو الآن يعيش خارج فلسطين.
- كاتب ياسين ماركسي جزائري.
- محمد أركون جزائري يعيش في فرنسا.
- الشاعر المصري صلاح عبد الصبور مؤلف مسرحية الحلاج، وغيرهم كثير.

المبحث الثاني
أبرز أساليب الحداثيين للطعن في السنة النبوية

سبق معنا أن التيار الحداثي العربي يُمثِّل تياراً مُستقِلاًّ، بأدوات وأفكار وآراء وأصول وجذور خاصة، مستمدة معظمها من الفلسفة الغربية والحداثة الغربية، وكذلك فإن موقفهم من التراث العربي موقف عدائي؛ حيث يريدون نقضه وهدمه، ثم البناء من جديد، بعيداً عن هذا التراث الذي يصدُّهم عن سبيل التقدُّم والرُّقي بزعمهم.

كما يُلاحَظ على التيار الحداثي العربي غزارة إنتاجه الفكري وامتداده على مدار العالم العربي من شرقه إلى غربه، في حركة نشطة ومتصاعدة، حتى يمكن القول إنَّهم كوَّنوا فيما بينهم مدرسةً فكريَّةً وتيَّاراً فلسفيًّا.

ولذا نالت السنة النبوية القسط الأوفر من الهجوم والحرب المعلنة، وتعدَّدت أوجه الهجوم وأساليب الطعن فيها، ومن أهم أساليب الحداثيين للطعن في السنة النبوية ما يلي:

المطلب الأول: نفي صفة الوحي عن السنة

الفرع الأول: نظرة الحداثيين لوحيية السنة النبوية.

يرى الحداثيُّون العرب أنَّ الأحاديث النبوية ماهي إلا تراث أكثر من أن تكون وحياً، فهم يعتقدون بنفي وحيية السنة؛ وعدم اعتبارها مصدرا تشريعيا، حيث يقول نصر حامد أبو زيد: (ليست السنة مصدرا للتشريع وليست وحيا، بل هي تفسير وبيان لما أجمله الكتاب) [1] ؛ ويسعون من خلال ذلك إلى إلغاء وحييتها بالتركيز على أنسنة النصوص؛ أي التحرر كليا من مرجعيتها الدينية، و(نقلها من الوضع الإلهي إلى الوضع الإنساني، وعدها غير قابلة للفهم والتحليل مالم يخلع عنها طابع الأزلية والقدسية والغيبية) [2] وإعطائها البعد البشري، فتنتقل من نص متعال عن الزمان والمكان إلى نص يتحكم فيه الإنسان، وهو الذي يحدد معناه، مما يغيب المعنى الحقيقي للنصوص النبوية، فهي في نظر الحداثيين إما نصوص ناتجة عن تفكير

(١) نصر حامد أبو زيد: الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، (ص٣٩).

(٢) محمد عبد الفتاح الخطيب: القراءة الحداثية للسنة النبوية، (ص٢٨٥).

بشري؛ أي بشرية المصدر، أو أن بعضها وحي، لكن بمجرد انفصاله عن مصدره يتأنْسَنُ فهما وتطبيقا، فيخضع لمفاهيم البشر).[1]

وفي هذا الصدد يقول محمد شحرور: (إنَّ المشكلة تأتي مرة أخرى من زعم الفقهاء أنَّ حلال محمَّد صلى الله عليه وسلم حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرام محمَّد صلى الله عليه وسلم حرام إلى يوم القيامة، وتأتي من اعتبارهم أنَّ القرارات النَّبويَّة التنظيمية لها قوة التنزيل الحكيم الشامل المطلق الباقي، ناسين أنَّ التحليل والتحريم محصور بالله وحده، وأنَّ التقييد الأبدي للحلال المطلق يدخل حتماً في باب تحريم الحلال، وهذه صلاحية لم يمنحها تعالى لأحد بما فيهم الرُّسُل).[2]

(فالحداثي ينظر إلى النصوص على أنها إما بشرية ابتداء أو بعضها وحيا إلهي المصدر، ولكنه عندئذ يقول بأنسنتها فهما وتطبيقا بمجرد تجسده بالوضعية البشرية وبلغة بشرية، وخضوعه لأفهام البشر).[3]

الفرع الثاني: أبرز شبهات الحداثيين لنفي صفة الوحي عن السنة والرد عليها

ولنفي صفة الوحي عن السنة النبوية استدل الحداثيون بأمور عدة منها:

أولا: قول الله تعالى: ﴿ مَا فَرَطنَا في الكِتابِ من شيءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿ونزَّلنا عليك الكتَابَ تِبيانًا لكل شيءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] يدل هذا على أن القرآن حوى على كل شيء من أمور الدين وأحكامه، وأنه بيّنه وفصّله بحيث لا يحتاج لشيء آخر كالسنة تشرحه وتبينه وإلا كان الكتاب مفرِطا فيه.

ويجاب عنه: ان الحديث التشريعي وحي من الله تعالى لأنه سبحانه قال في كتابه الكريم: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِكْرَ لِتُبَينَ لِلنَّاسِ مَا نزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يتَفَكَّرُونَ)(النحل: ٤٤) فقد بينه صلى الله عليه وسلم أحسن بيان، وبذلك فبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بيان الله تعالى، وبيان الرسول لا يكون بيان من الله إلا بوحي جلي متلو منه سبحانه عز وجل وهو القرآن، وشتان بين الأحاديث المنقولة إلينا بالأسانيد المتصلة المقبولة عقلا وعرفا بل وفطرة.

---

(١) الحارث فخري عيسى: الحداثة وموقفها من السنة النبوية، (ص١١٩).

(٢) محمد شحرور: نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي، ص١٦٠

(٣) الحارث فخري عيسى: المرجع السابق (ص١١٩).

ثانيا: قول الله تعالى: ﴿ إنّا نحنُ نزّلنا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] يدل على أن الله تكفل بحفظ القرآن دون السنة، فلو كانت السنة حجة كالقرآن لتكفل الله بحفظها أيضا.

يجاب عنه: إن ما وعد الله بحفظه من حفظ الذكر لا يقتصر على القرآن وحده، بل المراد به شرع الله ودينه الذي بعث به رسوله، وهو أعم من أن يكون قرآنا أو سنة، ولا شك أن الله كما حفظ كتابه حفظ سنة نبيه، بما هيأ لها من أئمة العلم يحفظونها ويتناقلونها و يتدارسونها ويميزون صحيحها من سقيمها.

قال الامام ابن حزم: (فأخبر تعالى كما قدمنا أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكرُ محفوظ بنص القرآن. فصح بذلك أن كلامَه صلى الله عليه و سلم كلُّه محفوظ بحفظ الله عز وجل، مضمونٌ لنا أنه لا يضيع منه شيء، إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء، فهو منقول إلينا كله).[1]

وقال الامام ابن القيم: قال تعالى آمرا لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي} [الأنعام: ٥٠] وقال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: ٩] وقال تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: ٤٤] قالوا: فعلم أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين كله وحي من عند الله، وكل وحي من عند الله فهو ذكر أنزله الله، وقد قال تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣] فالكتاب القرآن، والحكمة السنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " «إني أوتيت الكتاب ومثله معه» " فأخبر أنه أوتي السنة كما أوتي الكتاب، والله تعالى قد ضمن حفظ ما أوحاه إليه وأنزل عليه ليقيم به حجته على العباد إلى آخر الدهر).[2]

ثالثا: لو كانت السنة وحيا وحجة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابتها وتدوينها، ولعمل الصحابة والتابعون من بعده على جمعها وتدوينها، لما في ذلك من صيانتها من العبث والتبديل والخطأ والنسيان، وفي صيانتها من ذلك وصولها للمسلمين مقطوعا بصحتها فإن ظني الثبوت لا يصحُّ الاحتجاج به. ولا يحصل القطع بثبوتها إلا بكتابتها كما هو الشأن مع القرآن، ولكن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابتها وأمر بمحوِ ما كتب منها، وكذلك فعل الصحابة والتابعون، فلم تدون السنة إلا في عصور متأخرة بعد أن طرأ عليها الخطأ

(١) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، (٩٨/١).

(٢) الموصلي، محمد: مختصر الصواعق المرسلة، (ص ٥٥٩).

والنسيان، ودخل فيها التحريف والتغيير، وذلك مما يوجب الشك بها وعدم الاعتماد عليها في أخذ الأحكام.

ويجاب عنه: إن حجية القرآن لم تأتِ مِن كتابته حتى نقول بوجوب كتابة السُّنة النبوية، ثم إن حجية السُّنة لا تأتي مِن كتابتها؛ إنما مِن حفظها ونقلها على مرِّ العصور، والكتابةُ لا تعني القطعَ بالشيء؛ لأن ما يُقطَع به في العلم هو عدالة ناقل الشيء، والتحقُّقُ منه، ضمن قواعد التأكد من صحة الخبر، فنقول: الكتابةُ ليست من لوازم الحُجِّية، وكتابة الشيء لا تفيد القطع به، فكثير من المعلومات التي يتناقلها الناس قديمًا كانت تعتمد على المشافهة والسماع أكثر؛ وذلك في سائر الأديان، وعند العلماء إذا تعارَضَ حديثٌ مسموع مع مكتوب، أُخذ بالمسموع.

ثم إن العرب كانت تعتمِدُ على الحفظ أكثر من الكتابة، فمنذ عصر الجاهلية كانت العرب تشتهرُ بحفظ المُعلَّقات، ولا يستغرب وقتها أن فلانًا يحفظ ألف أرجوزةٍ، أو ألف بيت شعرٍ، فكان من المتوارَث والمتعارف عليه الاعتمادُ على حفظ الأخبار ونقلها مشافهةً؛ كما هو حال كثير من الأخبار والأشعار التي تناقلها الناس حتى كُتِبت، كذلك القرآن بقِي في عهد النبوة محفوظًا في الصدور حتى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واستشهاد كثيرٍ مِن القرَّاء في معركة اليمامة، فاقترح عمرُ بن الخطاب وبعض الصحابة على أبي بكر رضي الله عنه كتابةَ القرآن.

يضاف لذلك: أنه لا يُوجَد تلازمٌ بين عدم الكتابة وبين عدم الحجية، فهل نستدلُّ على حجية القرآن؛ لأنه مكتوب فقط؟ نقول أن الحجية تثبت بأشياء كثيرة؛ منها التواتر، ونقل العدول الثقات، ومنها الكتابة، وليس النقل عن طريق الحفظ أقل صحة وضبطا من الكتابة، خاصة من قوم عرفوا بقوة الحافظة، فاعتمادهم على ذاكرتهم كان أساسا لما ينقلونه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدارسونه.

واخيرا نقول مثل هذه الأقوال ممَّا لا ينظر فيها، ولا يلتفت لها؛ لأنها مسألة إيمانية بحتة، فمهما ادَّعى الحداثيون اتصالهم بالدين ومهما ادَّعوا إسلامهم، فلا يمكن أن يُسلَّم لهم بذلك ما داموا يُشكِّكون في ثبوت القرآن الكريم ابتداء وكونه كلام الله الموحَى به إلى نبيِّه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثانـي: التشكيك في ثبوت السنة النبوية

إنَّ الحرب على السنة النبوية هي حرب تدريجية، وفي الوقت ذاته هي حرب شاملة، فلا تترك ثغرةً إلاَّ وتُحاول الولوجَ منها والغارةَ من خلالها على السنة النبوية، في محاولة بائسة ويائسة للنَّيل منها وهدمها، فهم ابتداءً حاولوا نفي قدسيتها وكونها وحيًا من عند الله تعالى، فاستجاب لهم مَن استجاب، واغترَّ بهم مَن اغتر، ولكن هناك مَن رفَضَ هذا القولَ وردَّه، فدخلوا من بابٍ آخر؛ لِيَسْتَمِيلوا أُناسًا آخرين، فكان الباب هو إنكار مكانتها التشريعية، وقد اتَّبعوا أساليب مختلفة؛ لتحقيق هدفهم، وهذا ما سنتطرق له في هذا المطلب ببيان أبرز تلك الأساليب.

الفرع الأول: شبهة الإسناد منافٍ للعقل ومناقض للمنهج القرآني

إن الإسناد عند المحدثين يسعى إلى غاية كلية شريفة؛ وهي حماية حديث النبي صلى الله عليه وسلم من التحريف والوضع، لذلك اعتنى علماؤنا بهذا العلم الذي ميز الله به أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأمروا الناس بتعلمه والحفاظ عليه، قال الامام الأوزاعي: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).

ولما كان للإسناد أهمية كبيرة في حفظ السنة النبوية وتدوينها، ألقى الحداثيون العرب عديد الشبهات حول الإسناد للإنقاص من قيمته، في سياق الذم للسنة النبوية عموما ولعلوم الحديث خصوصا، ومن الشبهات المثارة حول الإسناد شبهة أن **الإسناد يشكل خطورة على العقل البشري ويمارس عليه تغييبا**، حيث أن هذا الإسناد - بزعمهم - يمكن اختلاقه وتوظيفه، فلا يصعب على من اختلق المتن أن يختلق له سندا، فيكفي أن يقول القائل (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فيسارع الناس بتصديقه، ويمتثلون لما يقول دون تفكير أو تمحيص، وهذا لارتباط الناس بالأسانيد واعتمادهم عليها وعدم اعتمادهم على عقوله.[1]

ويرد على هذه الشبهة بأن الإسناد في الحقيقة لا يغيب العقل ولا يلغيه بل إن الإسناد دليل مادي عقلي محسوس، ويتضح هذا من أمرين، هما:

أولا: أن أفراد هذه الأسانيد ليسوا أشخاصا مجهولين، بل هم أفراد معروفون ولهم تراجم وافية في كتب التراجم وكتب الجرح والتعديل، يذكر فيها كل التفاصيل التي تتعلق بروايتهم

(١) عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ص٢٦٠.

وبحياتهم الشخصية، ومن كان منهم مجهولا فإن حديثه يطرح ولا يقبل.

ثانيا: لم يقل أحد من المحدثين أن أي حديث يرُوى بالإسناد فهو صحيح ومقبول لا محالة، بل إنهم يروون بالإسناد الصحيح وغيره، ولكنهم يمحصون الروايات، فإذا كان رجال السند كلهم ثقات وخلا الحديث من العلل فإن المحدثين يصححون ذلك الحديث ويقبلونه، أما إذا كان رجال الإسناد ضعفاء أو فيهم راو ضعيف فإن المحدثين لا يقبلون ذلك الحديث ويضعفون تلك الرواية، وهذا هو المنهج الصحيح الذي يرتضيه أي عقل سليم.[1]

ومما أثاره الحداثيون بخصوص هذه النقطة ادعاءهم أن **الاسناد مناقض للمنهج القرآني** فيقول قائلهم: (إن إسناد قول ما للنبي صلى الله عليه وسلم يعني تحويل ذلك القول أو الحديث إلى حقيقة دينية يكون المسلم مطالبا بالإيمان بها والعمل وفقا لأحكامها، وهذا لا يتأتى إلّا للقرآن وحده، فالقرآن محفوظ بقدرة الله تعالى، وليس هنالك من وحي أما تلك الأحاديث التراثية فلا أول لها ولا آخر، وهي تتناقض مع بعضها وتناقض القرآن..).[2]

ويمكن الرد على هذه الشبهة من خلال النقاط التالية:

- **أولا:** لم يقل أحد من المحدثين أن إسناد أي قول للنبي صلى الله عليه وسلم يعني الحكم بصحته، فهم يروون بالإسناد كل نوع من أنواع الحديث؛ الصحيح والحسن والضعيف بل حتى المكذوب، أما الحكم على الحديث المسند الصحيح بأنه حقيقة دينية فليس في ذلك مؤاخذة، فإن الحديث إذا صح سنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح حقيقة دينية، لأن الأخذ بالحديث الصحيح هو في حقيقته استجابة للأمر القرآني في قوله تعالى: ﴿وما ءاتكم الرسول فخذوه﴾ [سورة الحشر: ٧].
- **ثانيا:** أن القرآن علّق قبول الأخبار بمعرفة أحوال ناقليها، فأمرنا سبحانه أن نتبين في خبر الفاسق ونتثبت منه، حتى يثبت صدقه، فمفهوم الآية يدل على قبول خبر العدل، ويدل دلالة ظاهرة على اعتبار الاسناد في قبول الأخبار، وهذا الأصل بنى عليه المحدثون نقلهم لكلام النبي صلى الله عليه وسلم.

وعليه فإن عمل المحدثين باعتبار الإسناد دليلا على صحة الحديث يتفق في طبيعته مع المنهج القرآني، ولا يخالفه بأي حال.

---

(١) شنوف عبد الهادي: شبهات الحداثيين العرب حول تدوين السنة النبوية والرد عليها،

(٢) أحمد صبحي منصور: الإسناد في الحديث،

الفرع الثاني: أنَّ السُّنة لا تستقل بالتَّشريع، وتقتصر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم على بيان القرآن وتفسيره لا غير.

انتقد كثير من الحداثيين العرب ما ذهب إليه أئمة الإسلام؛ كالإمام الشافعي وغيره بالتسوية (بين القرآن والسنة من حيث استقلال السُّنة بالتشريع)[1]، وقالوا: (يجب أنْ نؤكِّد أنَّ السُّنة النبوية لا تستقل بتشريع) [2]. وزعموا أنَّه (كان تعليم السُّنة يقترن بتفسير القرآن) [3] ليس إلاَّ و(أنَّ أغلب الحديث النبوي ليس مصدر تشريع؛ لأنَّ مُعظم ما وصَلَنا عن طريقه لم ينفرد به النبي صلى الله عليه وسلم عن غيره من الناس لكي يتخذ شِرعةً ومِنهاجًا من بعده) وقصروا مهمة السُّنة على بيان القرآن فقط، زاعمين بأنَّ (القرآن هو أصل الدين القويم، وأنَّ السُّنة لم تكن إلاَّ مُبيِّنةً له، ولا بد أنْ يكون البيان صحيحًا واضحًا لا شُبهة فيه).[4]

ثم توصَّلوا إلى نتيجة حتمية وخلاصة نهائية؛ بأنه (طبقًا لهذا الموقف ليست السُّنة مصدرًا للتشريع، وليست هي وحيًا، بل تفسيرٌ وبيانٌ لما أجمَله الكتاب، وحتى مع التسليم بحجية السُّنة فإنها لا تستقل بالتشريع، ولا تُضيف إلى النص الأصلي شيئًا لا يتضمنه على وجه الإجمال أو الإشارة).[5]

ويجاب عن هذه الشبهة بأن وظيفة السنة لا تقف عند مجرد بيان ما في القران الكريم، حتى وهي تفسير، فإن التفسير في ذاته لا يخلو من إضافة، ما بين تخصيص عام أو تقييد مطلق أ تفصيل مجمل، وهذا في حد ذاته إضافة جديدة، ولو اقتصر دور السنة على بيان ما في القران لتنافى ذلك مع حكمة الله عز وجل القادر على انزال الكتاب مفصلا لا يحتاج الى سنة تبينه وهذا ما لم يكن. وما ذلك إلا أن السنة أوسع من القران اذ انها تستطيع ان تتحمل ما لا يتحمله القران من أحكام تحتاج الى شرح وبسط في القول.

يقول الدكتور القرضاوي رحمه الله تعالى: (والحق الذي لا مراء فيه أن جل الأحكام التي يدور عليها الفقه في شتى المذاهب المعتبرة قد ثبت بالسنة، ومن طالع كتب الفقه تبين له ذلك بكل جلاء، ولو حذفنا السنن وما تفرع عليها، واستنبط منها من تراثنا الفقهي ما بقي

(١) لإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، (ص ١٥٧).
(٢) أيمن عبد الرسول: في نقد المثقف والسلطة والإرهاب، (ص ٢٢٤).
(٣) الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع عند العرب (الأصول)، (ص ١٤٢).
(٤) محمود أبو رية: أضواء على السنة المحمدية، (ص ٣٦).
(٥) أبو زيد نصر حامد: الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، (ص ١١٩).

عندنا فقه يذكر).[1]

المطلب الثالث: نفي حجية السنة النبوية

الفرع الأول: شبهات الحداثيين لنفي حجية السنة النبوية

من شبهات الحداثيين والمشككين في السنة قولهم: إن الله تعالى بيَّن في كتابه أنَّه لم يفرط في الكتاب من شيء، وفي القرآن ما يكفينا إذا ولهذا الأمر لا نحتاج الى سنة تزاحم القرآن، و لتحقيق غرضهم هذا ارتكزت اقوالهم على النقاط الآتية:

– أنه لا يوجد دليل قطعي على حجية السنة.

– أن السنة أغلبها ظني والظني منهي عن اتباعه بنص القرآن.

- القول بأن حجية السنة النبوية وضعت متأخرا في زمن الشافعي فقط؛ حيث يذهب كثير من الحداثيين إلى أن السنة في أساسها لم تكن حجة في وجدان المسلمين، وإنما أسس حجيتها الشافعي نهاية القرن الثاني للهجرة، وذلك بتفسيره الحكمة الواردة في كتاب الله تعالى بأنها السنة النبوية.[2]

الفرع الثاني: الرد على شبهات الحداثيين حول حجية السنة النبوية

ويجاب عن تلك الشبهات السابقة بما يأتي:

أما النقطة الأولى، فنقول ابتداء: لو لم تكن السنة بيانا للقرآن؛ تفسر مجمله وتخصص عامه وتقيد مطلقه لما عرفنا كيف نصلي؟ ولا كيف نؤدي زكاة أموالنا؟ ولا كيف نحج؟ ولا كيف تستقيم معاملاتنا المالية؟ في كثير من المسائل الدينية التي ورد الأمر بها في القرآن بشكل مجمل لا يمكن فهمه إلا من خلال الرجوع إلى السنة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال: «خذوا عني مناسككم»، وقال: «ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله».

ومن هنا فقد لا حظ الإمام الشاطبي أن (تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلّي لا جزئي... ويدل على هذا المعنى بعد الاستقراء المعتبر أنه محتاج إلى كثير من البيان؛ فإن

(١) القرضاوي، يوسف: المدخل لدراسة السنة النبوية، (ص ٤٦).

(٢) أبو زيد نصر حامد: الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، (ص ١١٩).

السنة على كثرتها وكثرة مسائلها إنما هي بيان للكتاب). [1]

أما النصوص التي دلت على حجية السنة وأنها جزء من التشريع، فمنها قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» وقد وردت طاعة الرسول هنا معطوفة على طاعة الله، والعطف يدل على المغايرة، مما يعني أن طاعة الرسول المقصودة في الآية هي طاعة زائدة على طاعة لله؛ فطاعة الله هي اتباع كتابه وطاعة الرسول هي اتباع سنته، وهي واجبة بنص الآية بل إن هذا الوجوب يرتفع إلى تكون طاعة الرسول من طاعة لله: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وهذه الآية دليل واضح على تهافت (التفرقة بين الله ورسوله في أمر التشريع). [2]

ولهذا جزم الرازي أن هذه الآية من أقوى الدلائل على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم «في جميع الأوامر والنواهي وفي كل ما يبلغه عن الله» [3]

ويؤكد هذا أَمْرُه سبحانه وتعالى بالتسليم التام لحكم النبي صلى الله عليه وسلم «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» وتحذيره من مخالفة أمره «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، وأمره برد القول إليه (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته، كما بين ذلك الإمام الشافعي. [4]

فهذه الآيات بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، فضلا عن كون كل واحدة منها دليلا مستقلا بذاته على حجية السنة، إلا أن ضم بعضها إلى بعض يفيد بشكل يقيني لا شك فيه أن السنة حجة قائمة بذاتها وأنها جزء من التشريع الإلهي والبيان المعصوم.

وأما النقطة الثانية - أن السنة أغلبها ظني والظني منهي عن اتباعه بنص القرآن – فيقال:

إن الظن الذي ورد النهي عنه في القرآن هو الظن الذي لا يَنْبَنِي على أصل؛ غير الأوهام والتخرصات ولهذا قَرَنَ القرآن بينه وبين اتباع الهوى (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)، وَوَصْفُ السنة بأنها ظنية إنما هو مبالغة من علماء الإسلام في الاحتياط والدقة العلمية، وإلا فإن السنة النبوية وضع لها المسلمون علوما منهجية صلبة لتوثيقها ومنع تسرب الدخيل إليها

(١) الشاطبي: الموافقات،(١٨٠/٤)

(٢) ينظر: ابن عاشور الطاهر: التحرير والتنوير، (١٩٨/٤).

(٣) الرازي: مفاتيح علوم الغيب، (١٤٩/١٠).

(٤) الشافعي: الرسالة، (ص٨١)

تقترب بها من اليقينية، مثل علم الجرح والتعديل الذي عُنِي بتدوين تاريخ رواة السنة؛ جرحا وتعديلا، وعلم المصطلح الذي وَضَعَ أصولا واضحة لتميز الحديث الصحيح من الحديث الضعيف، مثل اشتراط عدالة الرواة واتصال السند وسلامته من الشذوذ ومن الاضطراب.[1]

وبخصوص النقطة الثالثة، سنجيب عنها بإيراد الأدلة الواضحة البينة من القرآن والسنة وإجماع الصحابة والنظر الصحيح على أن السنة حجة معتبرة في دين الإسلام:

فمن القرآن:

- قال الله تعالى : (من يطع الرّسول فقد أطاع الله) ، فجعل الله تعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم من طاعته . ثم قرن طاعته بطاعة رسوله ، قال تعالى : (يا أيّها الّذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول).
- حذر الله عز وجل من مخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتوعد من عصاه بالخلود في النار ، قال تعالى : (فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبُهم عذاب أليم) .
- جعل الله تعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم من لوازم الإيمان ، ومخالفته من علامات النفاق ، قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتّى يحكمُّوك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً) .
- أمر سبحانه وتعالى عباده بالاستجابة لله والرسول ، قال تعالى : (يا أيُّها الّذين أمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يُحييكم ..) .
- ثم أمرهم سبحانه برد ما تنازعوا فيه إليه ، وذلك عند الاختلاف ، قال تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردّوُه إلى الله والرّسول) .

ومن السنة:

- ما رواه الترمذي عن أبي رافع وغيره رفعه (أي : إلى النبي صلى الله عليه وسلم) قال لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه).[2]

---

(١) ينظر: الشاطبي: الاعتصام، (١/٢٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: سنن الترمذي، رقم (٢٦٦٣).

◆ وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر..).[1]

◆ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ، أنه قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ثم أقبل علينا ، فوعظنا موعظة بليغة) وفيها : (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ..).[2]

وقد نقل الإجماع على حجية السنة النبوية الامام الشافعي فقال: (ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحدا أُخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قبل خبره ، وانتهى إليه ، وأثبت ذلك سنة .. وصنع ذلك الذين بعد التابعين ، والذين لقيناهم ، كلهم يثبت الأخبار ويجعلها سنة ، يحمد من تبعها ، ويعاب من خالفها ، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل العلم بعدهم إلى اليوم ، وكان من أهل الجهالة) .[3]

كما أن النظر الصحيح أيضا يدل على حجية السنة النبوية وذلك كون النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله ، يقتضي تصديقه في كل ما يخبر به ، وطاعته في كل ما يأمر به ، ومن المُسلَّم به أنه قد أخبر وحكم بأمور زائدة على ما في القرآن الكريم ، فالتفريق بينها وبين القرآن، في وجوب الالتزام بها ، والاستجابة لها ، تفريق بما لا دليل عليه ، بل هو تفريق باطل، فلزم أن يكون خبره صلى الله عليه وسلم واجب التصديق ، وكذا أمره واجب الطاعة .

(١) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود، رقم (٣٠٥٢).
(٢) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود، رقم (٤٦٠٩)، والترمذي: سنن الترمذي، رقم (٢٦٧٦).
(٣) السيوطي: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، (ص ٣٤).

خاتمة

في ختام هذا البحث - الذي حاولنا فيه الدفاع عن السنة النبوية التي تتعرض لهجمات كبيرة، خصوصا من أصحاب الفكر الحداثي والذين أثاروا عدة شبه حول السنة النبوية وما يتعلق بها - أذكر جملة من النتائج، أهمها:

- الحداثة فكر غربي ومشروع أيديولوجي، له أهدافه وأدواته وغايته التي يناضل من أجلها، والحداثيون العرب متأثرون بهذا الفكر، وينطلقون منه لنقد الموروث الإسلامي.
- وقف الحداثيون العرب موقف العداء الشديد للسنة النبوية، قصد النيل منها، والحد من حجيتها، وإلغاءها من مصادر التشريع الإسلامي، وجعل العقل مكانها.
- أثار الحداثيون العرب عدة شبهات حول السنة النبوية من أجل تحقيق الغاية المذكورة آنفا، ابرزها: نفي وحيية السنة، التشكيك في ثبوت السنة وأخيرا نفي حجية السنة النبوية .
- إن شبهة عدم حجية السنة لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدونها هي شبه باطلة، لأنهم حصروا الحجية في الكتابة فقط، وإهمال وسائل التوثيق والحجية الأخرى، وفيه جهل بصور العناية بالسُّنة النبوية في القرنين الأول والثاني، وجهل بوجود الكتابة المبكِّرة للسنة النبوية.
- إن الادعاء الذي أثاره بعض الحداثيين حول الإسناد بقولهم تارة أنه منافٍ للمنهج القرآني، وقولهم تارة أخرى أنه مناقض للعقل لسهولة اختلاقه، هي تهم داحضة، وكلام لمن لا علم له، فالإسناد هو حقيقة المنهج القرآني الذي دعانا للتثبت في قبول الأخبار.

وأخيرا هذه بعض التوصيات المقترحة:

- ضرورة قيام المعاهد والكليات الشرعية والمؤسسات الإسلامية بدورها في الحَدِّ من نشر الشبهات الواهية حول السنة النبوية.
- تكوين الأئمة والدعاة، وتبيين الطرق العلمية للرد على شبهات الحداثيين العرب حول السنة النبوية وحجيتها.
- تقريب الخطاب الاسلامي المعتدل للمثقفين العرب، خاصة المتأثرين بالفلسفات الغربية. فعلماء الإسلام مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالوقوف على القرآن الكريم والسنة النبوية واستجلاءهما وإخراج العلوم منها بما يتلاءم مع روح العصر وأدواته.

- ضرورة مراجعة المنهج النقدي عند المحدثين، لا لأنه عاجز بل لإدامة إحياءه والإفادة منه.

هذا ما تيسر لي جمعه وإيراده في هذه الورقات، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي والشيكان والله ورسوله منه بريئان، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- الموافقات : الشاطبي، إبراهيم بن موسى ، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م.
- سنن الدارمي: الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن ، المحقق: نبيل هاشم الغمري، الناشر: دار البشائر (بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣ م
- الإحكام في أصول الأحكام : ابن حزم، أبو محمد علي، المحقق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون سنة طبع.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني، محمد بن علي: ، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩ م.
- الإسناد في الحديث: أحمد صبحي منصور: ، مقال إلكتروني منشور في شبكة الأنترنت.
- إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر: عبد الغني بارة، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ٢٠٠٥ م.
- أضواء على السنة المحمدية : محمود أبو رية ، دار المعارف: القاهرة، الطبعة ٦؛ ١٩٩٤م.
- الاعتصام: الشاطبي، إبراهيم بن موسى: ، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م.
- الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية : أبو زيد نصر حامد: ، المركز الثقافي العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، .
- التحرير والتنوير : ابن عاشور محمد الطاهر: ، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
- تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها: عدنان علي رضا النحوي: ، دار النحوي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، سنة: ١٩٩٤ م.
- الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع عند العرب: أدونيس، علي أحمد: ، دار

العودة – بيروت، ١٩٨٣ م.

◆ الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية: محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي: ، رسالة دكتوراه، بجامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض – السعودية، سنة: ١٤١٤ هـ.

◆ الحداثة وأثرها في تعطيل مقاصد السنة النبوية: موسى عمر كيتا و تكر الحاج موسى ، بحث منشور على النت، محور البحث: السنة النبوية وتحدياتها المعاصرة.

◆ الحداثة وموقفها من السنة النبوية : الحارث فخري عيسى: ، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م.

◆ الرسالة: الشافعي، محمد بن إدريس: ، المحقق: أحمد شاكر، الناشر: مكتبه الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠ م.

◆ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: الألباني، محمد ناصر الدين: ، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

◆ السلطة في الإسلام: عبد الجواد ياسين، ، الناشر: المركز الثقافي العربي، بدون معلومات طبع.

◆ سنن أبي داود : أبو داود، سليمان بن الأشعث: ، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

◆ سنن الترمذي: الترمذي، محمد بن عيسى: ، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومن معه، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

◆ شبهات الحداثيين العرب حول تدوين السنة النبوية والرد عليها: شنوف عبد الهادي: ، مقال على موقع الانترنيت الالوكة، تاريخ النشر: ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م.

◆ الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية : الجوهري، أبو نصر إسماعيل: -، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

◆ صحيح مسلم: مسلم، أبو الحسن بن الحجاج: ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

◆ في نقد المثقف والسلطة والإرهاب: أيمن عبد الرسول: ، دار النشر : رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤ م.

- القراءة الحداثية للسنة النبوية : حنان خياطي: ، مجلة العلوم وافاق المعارف جامعة عمار ثليجي بالأغواط الجزائر، تاريخ النشر: ٢٠٢٢ م.
- القراءة الحداثية للسنة النبوية: محمد عبد الفتاح الخطيب ، مركز احياء البحوث والدراسات،
- كتاب المنزلات: طرد الكبيسي، ، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، سنة النشر: ١٩٩٢.
- لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم: ، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- مختصر الصواعق المرسلة: الموصلي، محمد بن محمد: ، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.
- المدخل لدراسة السنة النبوية: القرضاوي، يوسف: ، دار الشروق – القاهرة، الطبعة: الرابعة، ٢٠٠٦ م.
- مفاتيح علوم الغيب: الرازي، محمد بن عمر: ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: ، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩ م.
- المنطلقات الفكرية والعقدية لدى الحداثيين للطعن في مصادر الدين: أنس سليمان المصري: ، الجامعة الأردنية عمادة البحث العلمي المجلد ٤٢، العدد ١ (٣٠ إبريل/نيسان ٢٠١٥).
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.
- نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: محمد شحرور: ، دار الساقي – بيروت - لبنان، سنة: ٢٠١٥ م.
- نشأة الحداثة وتطورها التاريخي: غازي الصوراني: ، ورقة مقدمة إلى الندوة الفكرية التي أقامها مركز حيدر عبد الشافي للثقافة والتنمية، ٢٠١٥/١٢/٩ م.